



وصل المراقبون العرب إلى سوريا كما هو معروف، وهم يحاولون منذ ثلاثة أيام البدء بتنفيذ "البروتوكول" الذي يقتضي إيقاف القتل وسفك الدم، وسحب الجيش والقوى الأمنية من المدن والبلدات، وإطلاق سراح الأسرى والمعتقلين، والتفكير في طرائق لإغاثة الشعب السوري في المحن الهائلة التي نزلت به نتيجة حروب الإبادة التي يشنها عليه نظامه منذ عشرة أشهر.

ولست مهتماً هنا بهل ينجح المراقبون في مهمتهم أم لا، وهل يستجيب النظام أخيراً أم لا. فكل ذلك لم يعد مهمًا ولا ممكناً. إذ لو تجاوب النظام، وحل نوع من الهدنة يتبع الانصراف لإغاثة الناس؛ فإنهم لن يكونون الأكل والشرب والكهرباء ومداواة الجراح، والسؤال عن المعتقلين. بل ما سيفعله الباقيون على قيد الحياة بحمص وريفها، ودرعا وريفها، وإدلب وريفها، ودمشق وريفها، وحماء وريفها، وكل البلدات والقرى، سيكون النزول إلى الشارع وبسلاط ومن دون سلاح، لمقاتلة النظام القاتل ولو بالأيدي والأذرع العارية. فنحن نتحدث عن نحو السبعة ألف قتيل، والأربعة عشر ألف مفقود، والسبعين ألف معتقل، وما يزيد على المائة ألف مشرد من مكان إلى مكان. وهذا فضلاً عن الذين لجؤوا إلى تركيا ولبنان والأردن والعراق. فقد كان في سوريا قبل عام أو بقى فيها نحو المليون عراقي، أما اليوم فإن أعداد العراقيين اللاجئين لا تكاد تذكر، وبدأ السوريون أنفسهم يهربون إلى العراق!

فلو أن النظام عاد إلى رشده – وهذا أمر مستبعد جداً – فمعنى ذلك أن ممثليه خلال شهر سيجلسون مع المعارضين **بالداخل والخارج بالجامعة العربية**، للتفاوض حول "حل سياسي". ولو أن المعارضين فعلوا ذلك – هم يقولون إنهم لن يفعلوا –، فلا شك أن الجمهور سينبذهم، ولن يقبل بالبقاء دقيقة واحدة تحت سلطة هذا النظام القاتل. فما مات من اليمنيين خلال عام لا يزيد على الأربعين، وهذا هي ملابساتهم تخرج إلى الشارع فيما بين تعز وصنعاء لطالب بمحاكمة علي عبد الله صالح، بدلاً من إعطائه ضمانات قانونية هو وأقاربه ورجالات نظامه! ولذا فالواضح اليوم، ويل ومنذ ثلاثة أشهر أن التأثيرين الذين وطنوا أنفسهم على عدم الخضوع مهما كلف ذلك، سيمضون قدمًا في ثورتهم، وسيزداد استعمالهم للسلاح للدفاع ثم للهجوم، وسيقاتلون مع "الجيش السوري الحر" لحين بلوغ القدرة على إسقاط النظام من طريق المقاومة الداخلية، والعقوبات العربية والدولية. فالحرب الأهلية بين السنة والعلويين مثلاً لن تقع. أما الذي سوف يقع أو بدأ يقع فهو أن قسمًا من الشبان الريفيين المشاركين في الاحتجاجات، يحملون السلاح الآن. والنزاع الداخلي الذي يكثر الحديث عنه سيكون بين الشبان التأثيرين والمنشقين عن الجيش من جهة، والجيش والقوى الأمنية من جهة أخرى.

وإذا كانت هذه هي مآلات الثورة والثوار، فكيف يفكر النظام، والذي يفعله أو **سيفعله**. ما تزال لدى النظام آمال داخلية وخارجية. أما الآمال الداخلية فتمثل في اعتقاد القدرة على إخماد الحراك. ورجالات النظام يقولون إن ذلك ممكن لأن مناطق الالتهاب الحقيقي محدودة أو أنها لم تتطور منذ ثلاثة أشهر، وهي تتمثل في درعا وريفها، وإدلب وريفها، وحماء

وريها، وحمص وريفها. وبلغ حجم هؤلاء أكثر من مليونين، لكنهم الآن متبعون جداً، ويمكن أن ينكسرؤا؛ أو أن هذه هي آمال النظام. أما في الخارج فهناك إيران والماليكي بالعراق وحزب الله بليban، وهذه جهات معروفة دولياً، وقد توحدت الآن تقريباً في جهد مشترك استمدت في الدفاع عن نفسها ونظام حليفها الرئيس الأسد. وقد ظل حزب الله على لسان أمينه العام ولعدة أشهر يعلل هذه "النصرة" الشرسة للنظام السوري بأنه نظام ممانعة ومقاومة. وقد كان الحزب بالاتفاق مع النظام السوري قد انقلب على حكومة سعد الحريري وأتى بميقاتي رئيساً للحكومة بلبنان. ومنذ ذلك الحين صار يعد لبنان وليس الحزب فقط ضمن محور الممانعة الذي فيه طهران والعراق وسوريا وحزب الله، وميقاتي ينكر ذلك بالطبع، لكن التركيبة التي أتى بها خاضعة للحزب والجنرال عون، ويشكل لبنان في وضعه الحالي منفذاً مالياً وتجارياً للنظام السوري المعزول، ويستطيع أركانه ورجال أعماله أن يتفسوا من خلال نظامه المصرفي الذي بدأ يتعرض للرقابة الأميركيه والدولية الشديدة.

**وشأن الماليكي رئيس الوزراء العراقي مع النظام السوري، لا يختلف عن شأن حزب الله.** لكن موقفه لم ينكشف إلا عندما تفاقم الأمر وتدخلت الجامعة العربية، وظهر موقف لبنان وال العراق متمايلاً أو مناقضاً للموقف العربي العام. وفي حين صمت رئيس الوزراء اللبناني في أكثر الأحيان، كان الماليكي قبل انفجار صراعه مع السياسيين السنة بالعراق، أكثر كلاماً وفصاحة. وقد تظاهر بالواسطة، وأرسل وفداً بالفعل إلى دمشق. وقال إنه على استعداد لاستقبال وفد من المعارضة. إنما الطريف كان ما علل به موقفه الداعم للنظام. قال الماليكي: "أنا قضيت في سوريا 16 عاماً -أي إن النظام له عليه جمائل-، والنظام هناك قوي وليس إسقاطه سهلاً، ثم إن الوضع هناك معقد، وعدم الوصول إلى إجراء الإصلاحات بالتوافق سيؤدي إلى مشكلات كبرى". وهو يقصد بتعقيد الوضع الطبيعية الطائفية للنظام السوري، وأن العلوين (والأقليات الأخرى) لن يتخلوا عن النظام الحالي دونما قتال، فتنجم عن ذلك نزاعات طائفية تشبه الحرب الأهلية. وتحليل الماليكي هذا يبدو مبالغأً فيه إلا إذا وضعناه في السياق الكامل الذي يقصد، والذي عبر عنه الإيرانيون وبعض السياسيين العراقيين، وهو النزاع السنوي/الشيعي. فهؤلاء يرون أن الثورات العربية تمثل صحوة سنوية، ولدى بعض تيارات تلك الثورات (السلفية) عداء للشيعة، وهذا فضلاً عن البعد السياسي والإستراتيجي، فالمحور الإيراني محور شيعي، والعلوين بالمعنى الإستراتيجي، وليس الديني أو المذهبي، صاروا جزءاً من الامتداد الإيراني بالمنطقة مثل شيعة لبنان أو بعض شيعة الخليج. فإذا كان حزب الله قد تغطى (دونما نجاح كبير) بورقة توت المقاومة؛ فإن الماليكي مضططر للإفصاح أو الغمغمة بما يتجاوز واجبات الجوار والصحبة. ولا شك أن النظام السوري تلقى مساعدات من عند الماليكي وبواسطته (من إيران)، أكبر مما تلقاه من جهة لبنان. فالطائرات الإيرانية مراقبة من تركيا، ولذلك هناك الجهة البرية من طريق العراق، والجهة البحرية الأكثر تعقيداً لتعريضها للمراقبة الإسرائيلية والأميركية. ويقال إن مقتدى الصدر أو الخزعلي المنشق عنه (في الحضن الإيراني)، أرسل عناصر لمساعدة النظام السوري في محنته مع شعبه.

**لقد أطلت بعض الشيء في إيضاح "المنظومة" التي يستند إليها النظام السوري من الناحيتين المذهبية والإستراتيجية.** ويمكن أن نضيف إليها هنا روسيا الاتحادية التي تورد إليه السلاح، والتي تدعمه في الأمم المتحدة. كما يمكن أن نضيف إلى عوامل دعمه الخوف الإسرائيلي من نظام ديمقراطي في سوريا يكون عدوا لها بالفعل وليس بالشكل مثل نظام الأسد، ودعا من خنزروانات حزب الله بشأن المؤامرة الأميركيه على النظام المقاوم؛ إذ من أسباب تطور الأزمة إلى هذه الأبعاد الخطير التردد الأميركي الشديد في التدخل، ليس بسبب الموقف الروسي فقط، بل وبسبب الموقف الإسرائيلي!

**لقد كان متوقعاً إذا طالت مدة الأزمة دونما مخرج عربي أو دولي أن تتطور خصومة الشعب السوري مع النظام إلى صراع مسلح.** وفي هذا الصراع يقف نحو المائة ألف مقاتل مع النظام بتسليح وتدريب جيد، في مواجهة نحو المليوني متظاهر ومحتج وثائر، بينهم تقديراً خمسة عشر ألفاً يتمتهمون إلى الجيش السوري الحر، وخمسة عشر ألفاً آخرون حملوا السلاح. وليس لدى هؤلاء تسليح جيد ولا تدريب أو انتظام حقيقي كما في الجيوش، لكنهم قد لا يحتاجون إلى ذلك لأنهم يشنون حرب

عصابات اقتصرت حتى الآن على الدفاع عن النفس بقدر الإمكان، لكنها تتطور إلى الهجوم إذا انهارت المبادرة العربية علينا، بملاذات آمنة أو من دون ملاذات!

المصدر: الشرق الأوسط

المصادر: